بحوث ودراسات

في

تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية

— ١ —

معركة ملاذكرد

البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد (١٠٧١ م / ٤٦٣ هـ) في مصنف نقفور بريينيوس

دراسة مقارنة للمصادر

تأليف

الدكتور

فايز نجيب اسكندر

كلية الآداب ببنها — جامعة الزقازيق

١٩٨٤

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د / فايز نجيب اسكندر
القاهرة

البيزنطيون والاتراك السلاجقة
فى معـــركة ملانكرد

رفع

أحمد عبد الفتاح حسين

بحوث ودراسات

في

تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية

— ١ —

معركة ملاذكرد

البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد (١٠٧١ م / ٤٦٣ هـ) في مصنف نقفور بريينيوس

دراسة مقارنة للمصادر

تأليف

الدكتور

فايز نجيب اسكندر

كلية الآداب ببنها — جامعة الزقازيق

١٩٨٤

مقدمة

لا يهدف هذا البحث الى تكرار او استعراض ما سبق ذكره فى المراجع الاجنبية والعربية عن « معركة ملاذكرد » (١٠٧١م/٤٦٣هـ) والدخول فى تفصيلات اغلب المؤرخون فى ذكرها ، وانما يهدف اساسا الى ابراز المعلومات الجديدة التى زودنا بها المؤرخ البيزنطى « نقفور بريينوس » «Nicephori Bryennii» ــ حفيد قائد الجناح الايسر للجيش البيزنطى ــ فى مصدره الهام « كتب التاريخ الاربعة » «Historiarum Libri Quattuor» وذلك فى محاولة لاضافة الجديد من المعلومات عن«معركة ملاذكرد»، اغفلتها كافة المراجع الاجنبية والعربية نتيجة تجاهلها هذا المصدر الهام .

فالاتراك السلاجقة تابعوا رسالة المسلمين فى قتال الروم ، وتمكنوا عقب انتصارهم فى « ملاذكرد » على البيزنطيين ، من انتزاع ارض الاناضول وصبغها بصبغة تركية اسلامية . وبذلك مهدوا للاتراك العثمانيين السبيل الى القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، والوصول الى الاراضى والبحار الاوروبية ، فكان لهذا اثره البالغ والبعيد المدى فى تسيير مجرى تاريخ وحضارة ومستقبل كثير من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية ، والذى مازال بعضه ملموسا الى يومنا هذا .

هكذا تدخل « معركة ملاذكرد » فى عداد المعارك الحاسمة التى غيرت مجرى تاريخ العصور الوسطى عامة والامبراطورية البيزنطية خاصة .

وكان من الطبيعى ان تعتمد هذه الدراسة التحليلية النقدية على العديد من المصادر عربية وغير عربية . فأما المصادر العربية ، فمنها ما هو مخطوط لم ينشر بعد ، وما هو مطبوع . واما الاصول الاجنبية ، فمنها البيزنطى

والارمنى والسريانى واللاتينى ، وبعضها لايزال بلغاته الاصلية التى كتب بها ، والبعض الآخر ترجم الى اللغات الاوربية الحديثة .

هذا وقد راعينا اثبات مختلف وجهات النظر كما عبرت عنها المصادر الاخرى من عربية وغير عربية ، المعاصرة « لنقفور بريفيوس » والمتأخرة عنه نسبيا ، فى حواشى البحث . والهدف من ذلك عدم الاخلال بالنص الاصلى .

والله ولى التوفيق ؟

قسنطينة فى أول يناير ١٩٨٤ . فايز نجيب اسكندر

اهمية مصنف نقفور بريننيوس

زودنا المؤرخ البيزنطى نقفور بريننيوس(١) «Nicephori Bryennii» فى مصدره « كتب التاريخ الاربعة »(٢) «Historiarum Libri Quattuor» على درجة كبيرة من الاهمية عن التفاصيل المطولة لمعركة ملاذكرد (١٠٧١م/٤٦٣هـ) ، نقلا عن جده الذى كان من بين الذين نسجوا مع العاهل البيزنطى رومانوس الرابع(١٠٦٨م ــ ١٠٧١م/٤٦٠م ــ ٤٦٣هـ) خيوط الهزيمة الساحقة التى منى بها الجيش البيزنطى على يد الاتراك السلاجقة ، اذ كان جده ــ المدعو نقفوربرينيوس ايضا ــ قائدا للجناح الايسر للجيش البيزنطى . لذا ، امتاز مصنف نقفوربرينيوس بتزويدنا بتفاصيل التكتيكات الحربية وفنون الحرب لدى الطرفين المتصارعين ، فاصبحت روايته اكثر حيوية من روايات غيره من المؤرخين المعاصرين مثل بسيللوس Psellos الذى اكتفى بتزويدنا باسطر لا تتعدى اصابع اليد عن معركة فاصلة فى تاريخ العصور الوسطى عامة وتاريخ الامبراطورية البيزنطية خاصة(٣) ، اذ كانت هزيمة ملاذكرد بمثابة بداية النهاية لتلك الامبراطورية الشامخة .

نقفور بريننيوس قائد الجناح الايسر للجيش البيزنطى :

ونقفوربرينيوس ، قائد الجناح الايسر للجيش البيزنطى وجد مؤرخنا ، هو الابن الاكبر للقريلاط(٤) Curopalate بريننيوس زوج آن فاتاتزينا(٥) Anne Vatatzina تعلم قائدنا فنون الحرب والقتال على يد والده وتألق نجمه خلال عهد رومانوس الرابع (اول يناير ١٠٦٨ ــ ٢٦ اغسطس ١٠٧١م) ، فقد ذكرت آن كومنين Anne Commène زوجة مؤرخنا . أن العاهل البيزنطى كان يقدر ذكاء قائده نقفور وسلوكه الحميد حتى انه قرر اعتباره شقيقه بالتبنى(٦) وقد شارك قائدنا فى معركة ملاذكرد(٧)، وكان آنذاك يحمل لقب ماجستروس(٨) Magistros واسندت اليه مهام

دوق كل الغرب(٩) duc de tout l'Occident وبوصول الجيش البيزنطى الى قيدوقيسا ، توسل نقفور الى الامبراطور رومانوس ان يتحصن فيها ، او على الاقل أن لا يتخطى ثيودوسيوبوليس(١٠) Théodosioupolis وان يظل فى الاراضى البيزنطية فى منطقة يتأهب فيها الفرسان والمشاة ، ولكن لم يؤخذ برايه(١١) . وفى اثناء الاقتتال الذى خاض غماره فى ضواحى ملاذكرد ، لم يكن حسن بلاء نقفور اقل من شجاعته ومهارته فى خوض غمار الحرب(١٢) . نفى خلال المعركة الحاسمة وذلك فى السادس والعشرين من اغسطس سنة١٠٧١م(١٣) (١٤ ذى القعدة سنة٤٦٣هـ) ، اسندت اليه قيادة الجناح الايسر للجيش البيزنطى . وقد حاول آنذاك الانجاه نحو الامبراطور البيزنطى لنجدته عندما علم انه فى موقف لا يحسد عليه ، لكنه كان محاطا بالاعداء السلاجقة احاطة الدائرة بمعصم اليد ، فاضطر أرميلو ذ بالفرار من ساحة القتال . ولكن كان لفراره هذا آثارة الطيبة ، اذ لم يسقط اسيرا فى قبضة السلطان السلجوقى الب ارسلان(١٤) (٤٥٥ — ٤٦٥هـ/١٠٦٧ — ١٠٧٢م) . وقد أوردت آن كومنين فى كتابها « الالكسياد » Alexiade ان جد زوجها كان مستشارا نطنا ، محنكا ، ذا تجارب ، ومتمرسا على فنون الاستراتيجية والتكتيكات الحربية(١٥) .

نقفور بريننيوس المؤرخ :

هذه كلمة سريعة موجزة عن تالد الجناح الايسر للجيش البيزنطى ودوره فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية حتى معركة ملاذكرد ، دون الدخول فى تفاصيل ما بعد ذلك حتى لا نخرج عن موضوع بحثنا وندخل فى مواضيع فرعية . اما مؤرخنا نقفور بريننيوس صاحب « كتب التاريخ الاربعة » ، فهو من مؤرخى النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وابن حنا بريننيوس حاكم ديراخيوم(١٦) Dyrrachium

ولد حوالى عام ١٠٨٠م (٤٧٣هـ) ، وكانت زوجته المؤرخة آن كومنين ابنة الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين اصغر منه بقليل . اذ انهـا ولدت يوم السبت الفسحانى من ديسمبر سنة ١٠٨٣م ، وتزوجا حوالى سنة ١٠٩٦ أو ١٠٩٧م ، بعـد وفاة قسطنطين دوقاس خطيب آن كومنـين فى صيف عام ١٠٩٤م(١٧) .

وترجع اول اشارة الى مؤرخنا نقفور كصهر للامبراطور البيزنطى الى الثانى من ابريل سنة ١٠٩٧م (٤٩٠هـ) ، اذا اوردت آن كومنين أن والدها الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م/٤٧٤ ـ ٥١٢هـ) كلف صهره نقفور بتأمين حراسة اسوار القسطنطينية ، ضـد هجوم شنه الصليبيون(١٨) . اما زونوراس ، فقد اورد ان الامبراطور البيزنطى انعم عليه بلقب « بنهيبارسبستى » Panhypersebaste بمنـاسبة زواجهمن آن كومنين(١٩) . كما انعم عليه بلقب قيصر César حوالى عام ١١٠٩ أو ١١١٠م ، ويؤكد ذلك انه كان يحمل هذا اللقب عشية وفاة البطـريرك البيزنطى نيقـولا جراماتيكوس Nicolas Grammatikos وذلك فى اوائل عام ١١١١م (٥٠٤هـ) . وفى عامى ١١١٤ و ١١١٥م (٥٠٨ و ٥٠٩هـ)،ذهب القيصر فى صحبة الكسيس كومنين الى فليبوبولى Philippoli ، وبذل قصارى جهده لتحويل بيالصه Manichéens (=Pauliciens) هذه المنطقة عن آرائهم التى تتسم بالهرطقة(٢٠) . وتذكر زوجته آن كومنين ان مؤرخنا تولى قيادة الجناح الايمن للجيش البيزنطى فى آخر حملة قادها والدها ضد الاتراك السلاجقة فى منطقة قونية Iconium وذلك سنة ١١١٦م(٢١) (٥١٠هـ) .

ولقد اوضح زونوراس مدى ما تمتع به برينيوس من مكانة ونفوذ فى عهد الكسيس كومنين ، حتى انه عندما مرض الصاهل البيزنطى سنة ١١١٨م (٥١٢هـ) ، اعتبرته الحاشية خلفا له . ففى هذا الصدد يقول زونوراس :

« تمتع القيصر برينيوس بمكانة هائلة ومؤثرة ، حتى انه كان يعلن بنفسه وبصوته ما كان يحدث فى القصر الامبراطورى (اى بمثابة المتحدث الرسمى للدولة فى ايامنا هذه) . لذا كان الجميع يمثل امامه . وقد أوكلت اليه مهام امور العدل ، واتسمت مراسيمه بالطابع الامبراطورى ، واشتهر بانه من المهتمين بالآداب »(٢٢) .

على أية حال ، فقد استماتت زوجته آن كومنين ووالدتها ايرين دوكاينا Irène Doukaina فى اقناع الكسيس على تعيين برينيوس خلفا له على عرش الامبراطورية البيزنطية بدلا من ابنه الاكبر حنا كومنين . لكن الكسيس لم يرضخ لتوسيلات ودموع زوجته ايرين . فيذكر خونيات Choniate أن الكسيس قال لزوجته « الا تكفى عن أن تعترضى على ما يعجب ابنتك ويرضى رغباتك ، اذ سينتج عن تلبية ذلك ، القضاء على الامن السائد فى ربوع الامبراطورية . يبدو انك مدفوعة بافكار شيطانية ، واتمنى أن تتسم اراؤك بالاعتدال اكثر من ذلك . فمن من أباطرة الروم القدامى فضل صهره على ابنه خلفا له على عرش الامبراطورية ؟ ومع ذلك ، اذا افترضنا ان اختيارا مثل هذا قد تم فيما مضى ، فسوف لا نعتبر ذلك الاستثناء قاعدة . اذا لبيت طلبك فساكون اضحوكة الامبراطورية ، بل وسيعتقد الشعب البيزنطى اننى معتوه ويحجر على ، ولا انسى اننى تسلمت زمام الامور وتربعت على عرش الامبراطورية بطريقة منافية ومخالفة للعقيدة المسيحية ، وذلك بعد ارتكابى لاعمال قتل . وبعد كل هذا تريدين أن استبعد ابنى خلفا لى على العرش وامين بدلا منه المقدونى »(٢٣) . وبذلك فشلت محاولات زوجة الكسيس وابنته فى تنصيب مؤرخنا برينيوس على عرش الامبراطورية البيزنطية.ويبدو ان مؤرخنا قبل تنحيته عن العرش عن طيب خاطر .الا أن زوجته آن — على حد قول خونيات — عملت على تحريض المتآمرين ، هادفة من ذلك قتل الامبراطور البيزنطى الجديد حنا كومنين شقيقها وابداله بالقيصر نقفور برينيوس(٢٤) زوجها .

ولقد اكد العديد من مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى ان نقفور كان واسع الثقافة ، فصيح اللسان محبا للآداب ونصيرا لأهله . ولا نستطيع تاييد ذلك لانه لم يصل الينا من مؤلفاته الا « كتب التاريخ الاربعة » التى كتبها فى عجلة تلبية لاوامر ايرين دوكانا Irène Doukaina زوجة الكسيس كومنين ووالدة زوجته آن كومنين ، وذلك فى اواخر ايام حياته اذ انه توفى فى حوالى نهاية عام ١١٣٧م (٥٣٢هـ) او نهاية عام ١١٣٨م (٥٣٣هـ)دون اكمال مصنفه . ومما لاشك فيه أن مصنفه هذا لم يكن انتاجه الوحيد ، اذ اكدت آن كومنين فى كتابها عن تاريخ والدها الكسيس كومنين «Alexiade» ان زوجها بريينيوس الف العديد من الكتب القيمة التى اكسبته شهرة ذائعة الصيت(٢٥) . وتواصل سردها قائلة أنه كان محبا للآداب والفلسفة ، لذا حظى ادباء عصره باهتمامه البالغ وكان هؤلاء يفخرون بالتردد على الصالون الادبى للامبراطورة ايرين دوكاينا ، وكثيرا ما طلبوا حماية القيصر فى اوقاتهم العصيبة(٢٦) .

هذه لمحة سريعة عن مؤرخنا القيصر نقفور بريينيوس والذى شاء القدر ان يحول بينه وبين الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية خلفا لاكسيس كومنين ، فحرمت الامبراطورية من أن يعتلى عرشها قائد ينتمى الى اعرق العائلات البيزنطية العسكرية فى ادرنه .

لمحة سريعة على محتويات مصنف « كتب التاريخ الاربعة » :

ومن المفيد حقا قبل الانتقال الى رواية بريينيوس عن معركة ملاذكرد ان نلقى بنظرة سريعة خاطفة على مصنفه دون الغوص فى تفاصيل محتوياته . فالملاحظ انا لصفحات الاولى من المصنف مفقودة . كذلك يبدو أنه نقل الفصول الاولى من مقدمة كتابه حتى الفصل العاشر منها ، نقلها عن مؤرخ مجهول ، الا ان كتابته المنسوبة اليه والتى تتفق مع اسلوبه التاريخى(٢٧) تبدا من الفصل الحادى عشر . ولقد عالج بريينيوس فى مقدمته تاريخ

آل كومنين باختصار منذ عهد اسحق كومنين (أول سبتمبر سنة ١٠٥٧م — ٢٢ نوفمبر سنة ١٠٥٩م) مسلطا الاضواء على الكسيس كومنين ، وموضحا كيفية وصوله الى العرش . واختتم المقدمة بالحديث عن آل كومنين وآل دوقاس(٢٨) . هذا عن محتويات المقدمة ، أما كتابه الاول ، فقد تحدث فيه عن النشأة الاولى لكل من اسحق ويحنا كومنين ، واختتمه بنهاية عهد رومانوس الرابع(٢٩) (٢٦ اغسطس ١٠٧١م) . وقد استهل برينيوس كتابه الثاني بالحديث عن اعادة تنظيم حكومة الامبراطورية البيزنطية بعد انكسار رومانوس في معركة ملاذكرد ، واختتمه بذكر اندلاع الفتن في انطاكية وغزو الاتراك السلاجقة لبلاد الشام(٣٠) . واذا انتقلنا الى كتابه الثالث ، نلاحظ ان برينيوس بداه بذكر احوال الامبراطورية البيزنطية في عهد ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨م/٤٦٣ — ٤٧١) واختتمه بنهاية عهده(٣١) . ثم يأتي في النهاية كتابه الرابع ، ذكر فيه مؤرخنا احوال الامبراطورية البيزنطية في اوائل عهد نقفور الثالث بوتانياتس (١٠٧٨ — ١٠٨١م/٤٧١ — ٤٧٤هـ) ؛ واختتمه بالحديث عن معركة ضارية دارت بين الاتراك والبيزنطيين . ونستشف من حديثه هذا جهود وتصارع القادة العسكريين البيزنطيين فيما بينهم(٣٢) .

تفاصيل معركة ملاذكرد في « كتب التاريخ الاربعة » :

هذا عن الخطوط العريضة لمحتويات مصنف برينيوس « كتب التاريخ الاربعة » . وقد تجنبنا التطرق للمآخذ التي تؤخذ على مصنفه ، لانها تزج بنا في متاهات بعيدة عن موضوع البحث . فالذي يهمنا على وجه الدقة ، التفاصيل التي اوردها مؤرخنا عن معركة ملاذكرد ، وتسليط الاضواء عليها ، مع عقد دراسة تحليلية مقارنة بينها وبين كافة المصادر الاخرى من بيزنطية وسلجوقية واسلامية وارمنية وسريانية ولاتينية .

ولقد افرد برينيوس الفصول من الثاني عشر الى السابع عشر من

كتابه الاول الحديث عن معركة ملاذكرد فى صميمها . وقد تجاهلنا ما حدث من أحداث قبيل هذه الهزيمة وبعدها ، لانها مطروقة فى كافة المصادر والمراجع فالهدف من البحث الاتيان بالجديد وليس تكرار القديم . اشار مؤرخنا فى مستهل الفصل الحادى عشر(٣٣) من مصدره وعنوانه وفاة القريالطة(٣٤) ماتويل كومنين »(٣٥) الى ان الامبراطور البيزنطى رومانوس(٣٦) ، قد اعد العدة فى اوائل الربيع(٣٧) لخوض غمار حرب فاصلة ضد الاتراك السلاجقة(٣٨) ، واصطحب معه فى هذه الحملة خريسوسكولوس(٣٩) Chrysoskoulos وزحف بجيشه الجرار(٤٠) الى ان وصل الى نيقية(٤١) ثم الى دوريليوم(٤٢) Dorylée ، حيث اخذ يدرب جيوشه استعدادا لتلك الحرب الحاسمة(٤٣) .

وبعد ان اظهر برينيوس نوايا المعاهل البيزنطى واستعداداته الضخمة لخوض معركة فاصلة ضد السلاجقة ، استهل فصله الثالث عشر(٤٤) وعنوانه « ديوجين قرر الزحف لقتال الاتراك » ، بذكر انباء وصول رومانوس الى تيدوقيا(٤٥) ، حيث عقد مجلسا حربيا استشاريا ضم كبار قادته واشهرهم . وتناقش الجميع خطة القتال ، واستشارهم الامبراطور البيزنطى حول مواصلة الزحف على بلاد فارس لقتال السلاجقة(٤٦) فى عقر دارهم ، ام البقاء فى اراضى الامبراطورية البيزنطية انتظارا لوصول الاعداء . علما بأن أخبار مغادرة السلطان السلجوقى(٤٧) بلاد فارس ، وزحفه ببطء فى اتجاه اراضى الامبراطورية البيزنطية ، قد تسربت الى معسكر المعاهل البيزنطى . فاختلفت الآراء فى هذا المجلس العسكرى . وكان رأى فريق المناقشين المتملقين — على حد قول مؤرخنا — هو عدم الانتظار اطلاقا ، والاسراع بالزحف لقتال السلطان الب ارسلان فور نزوله الى اقليم وسطان(٤٨) (فاتانا) Vatana فى ميديا(٤٩) (الفاسبوراكان) Médie وعارض هذا الرأى الفريق الثانى وعلى راسه كل من الماجستروس(٥٠) جوزيفة ترخانيوتس(٥١) Joseph Tarchaniotès قائد الجزء الاكبر

من الجيوش البيزنطية ، ونقفوربرينيوس(٥٢) — جد مؤرخنا — ودوق كل الغرب ، واعتبر القائدان ان راى الفريق الاول خاطىء تماما ، وتوسلا الى الامبراطور البيزنطى ان ينتظر فى اراضى بيزنطة اذا امكن ذلك ، لجذب العدو داخل البلاد واوضحا ان هذه الخطة تتطلب تحصن المدن المجاورة لمعسكر الجيش البيزنطى ، واحراق القرى ايضا ، حتى يحرم العدو من التزود بالمؤن(٥٣) . وفى أسوأ الظروف والاحتمالات ، على الجيش البيزنطى ان يواصل زحفه الى ان يصل الى ثيودوسيوبوليس(٥٤) Theodosioupolis ليقيم ويعسكر فيها ، انتظارا لوصول الاعداء ، ذلك لأن السلطان السلجوقى بعد انعدام مؤنة ، سيجبر على مهاجمة البيزنطيين على اراضى مناسبة لقتال الجيوش البيزنطية(٥٥) . ولكن لا حياة لمن تنادى ، فكلتهما يصرخان فى اذنى أصم(٥٦) . وانفض المجلس العسكرى بفوز فريق المنافقين ، فى حين كان ينبغى على الساهل البيزنطى ان يأخذ برأى قادته الابطال ومستشاريه الحكماء ، الذين لهم وزنهم وثقلهم الشخصى(٥٧) . الا انه كان شلا نتيجة انتصاراته السابقة التى ملأته بالتكبر والغطرسة(٥٨) ، اذ تمكن من الاستيلاء على قلعة منبج(٥٩) Mempet ، وأخذ فى مطاردة كتائب من الاتراك الذين لا هم لهم الا السلب والنهب ، فنجح فى قتل عدد كبير منهم ، بل اسر ايضا أعدادا اكبر(٦٠) . وكانت هذه الانتصارات دافعا قويا على تكبر وغطرسة الامبراطور البيزنطى ، أضف الى ذلك ثقته التى لا حدود لها ، لتراسه جيوشا لا حصر لها(٦١) ، فاقت فى عددها جيوش أسلافه(٦٢) . فلأول مرة فى التاريخ البيزنطى يحشد جيش بمثل هذا العدد . وهكذا على راس جيشه الجرار ، زحف الساهل البيزنطى مباشرة الى بلاد فارس لقتال السلاجقة فى عقر دارهم(٦٣) .

هذا عن ما تم فى المجلس العسكرى الذى عقده رومانوس ، واختلاف آراء القادة ، واخذه بالراى الخاطىء ، حسب راى بريتيوس ، الذى انحاز

الى جانب راي جده ورفيقه في السلال جوزيف ترخانيوتس . واذا انتقلنا الى الفصل الرابع عشر(٦٤) وعنوانه « هجوم غير متوقع ، واسربازيلاكس(٦٥) Basilakès » فقد استهله ، بريينيوس بذكر وصول الباسليوس الى ملاذكرد(٦٦) ، ووصول بازيلاكس للانخراط في صفوفه مصحوبا بجيوش جرارة حشدها من بلاد الشام وارمينية(٦٧) . وكان بازيلاكس رجلا شجاعا ، قوي الشكيمة ، مفتول العضلات ، لكنه كان متهور الطباع ، يتميز بالاندفاع ، ولم يكن باستطاعته السيطرة على اندفاعاته . وبما أن من صفاته تملق الامبراطور ، لذا كان لا يرد على اسئلته الا برد يتسم بالحماقة وضيق الافق(٦٨) . وحدث أن كتب ليون دياباتينوس(٦٩) Léon Diabatènos رسالة الى الامبراطور البيزنطي يعلن فيها ان السلطان الب ارسلان علم باخبار الحملة البيزنطية ، فانتابه الرعب بسبب هذا الحشد الهائل من الجند ، لذا ترك بلاد فارس ولاذ بالفرار الى بغداد(٧٠) Babylone فصدق رومانوس ما ورد في هذا التقرير ، وقام بتقسيم جيشه الى قسمين(٧١) ، احتفظ بالقسم الاول الى جواره ، اما القسم الثاني من الجيش ، فقد ارسله الى خلاط(٧٢) Klèat ، واسند قيادته الى الماجستروس جوزيف ترخانيوتس(٧٣) . وكان جوزيف قائداً قديرا على تنفيذ الخطط الحربية ، خبيرا بفنون الحرب واصول علم الاستراتيجية . ولكنه في ظل هذه الاحوال ، لم يكن مقتنعا ولا متحمسا للعمليات المأمور بتنفيذها ، اذ كان يائسا تماما . فلقد أوصى الامبراطور البيزنطي بأن يحتفظ بكل قواته في معسكره ، وأن لا يقسم جيشه ، لأن الاتراك السلاجقة كانوا يعسكرون على مقربة من المعسكر البيزنطي(٧٤) . الا انه فشل في اقناع رومانوس برأيه ونصائحه ، فاضطر الى ان يتوجه الى خلاط على راس قواته وكانت هذه المدينة آنذاك خاضعة لنفوذ السلاجقة ، تحميها حامية تركية قوية . الا ان الاتراك ، منذ اليوم الثالث ، انقضوا على الجنود البيزنطيين الخارجين بمحيط حصونهم لترعى ، فقتلوا البعض منهم واسروا البعض الآخر(٧٥) . وبمجرد علم

رومانوس بهذا الحادث ، استدعى على الفور بازيلاكس ليستفسر منه عن مرتكبي هذه المذبحـــة وجنسياتهم ومركز عملياتهم الحربية . فرد بازيلاكس بتهور انهم اتوا من خلاط للقيام باعمـــال السلب والنهب وبذلك اخفى برده الاحمق على امبراطور الروم عملية زحف السلطان السلجوقي(٧٦) الذي لم يكن بعيدا عن معسكر الجيوش البيزنطيـــة والادهى من هذا ان العـــامل السلجوقي كان يعد خطة الهجوم ، واضعا في الاعتبار ترتيباته الماهرة لخوض غمار معركة فاصلة ، بينما الامبراطور البيزنطي يجهل تماما كل الذي يدور على مقربة منه(٧٧) .

كانت خطـــة الب ارســـلان تقوم على جذب الامبراطور داخل البلاد ، واثارته ليخاطر بنفسه ويتقدم الى الامام ، وبالتالي يقبض عليـــه كفريسة سقطت في حبـــال شباك السلاجقة ، تحقيقا لهذه الخطـــة ، كان الماكر السلجوقي يرسل بفرســـانه الى المعسكر البيزنطي ، وبمجرد وصولهم ، اليه يعودون على اعقابهم كانهم يلوذون بالفرار . وبفضل تكرار هذه التكتيكات الحربية ، تمكن السلاجقة من القبض على بعض القادة البيزنطيين(٧٨) بعد ان نجحوا في جذبهم لمطـــاردتهم وكان اول هؤلاء بازيلاكس ، الذي أراد أن يثبت للامبراطور البيزنطي ان مرتكبي حادث خلاط لا ينتمون الى جيش الاتراك السلاجقة ، ولكنهم من ســـكان خلاط المحبين للسلب والنهب . لذا ، طلب السماح له بالخروج من المعســـكر . فسمح له رومانوس بذلك ، فامسك بسيفه الطويل ،وغمز جواده ، وانقض على الاعداء انقضاضا طائشا متهورا دون ترتيب صفوفه قبل النزال . وتبعه في هجومه هذا جنوده ، فقـــاطوا السلاجقة قتالا فوضويا بعيدا عن وحدة الصف والنظام في الحرب ، اذ تصرف كل جندي كما يحلو له(٧٩) . ولاحظ الاتراك هذه الفوضى ، فتظاهروا بالفرار والتقهقر ، فطاردهم جنـــود بازيلاكس الى ان ابتعدوا كثيرا عن المعسكر البيزنطي الا ان السلاجقة سرعان ما استداروا فجاة لينقضوا على الجيش البيزنطي المتفرق هنا وهناك ، وبذلك تجحوا في القضاء عليه قضاء مبرما .

وراح ضحية هذه المعركة اعداد لا حصر لها ، حتى انه لم يبق أى رسول لينقل خبر تلك الكارثة الى المعسكر البيزنطى ، حتى بازيلكس اسر هو أيضا فى تلك المعركة(٨٠) .

هذا عن تفسير بريينوس للاسباب التى دفعت رومانوس الى تقسيم جيشه الى قسمين ، واظهاره فشل جوزيف ترخانيوتس — رفيق جده فى السلاح والمعارضة — فى اقناعه بالعدول عن هذه الخطة الخاطئة لتسرب السلاجقة من المعسكر البيزنطى . ونستشف من حديث مؤرخنا تعاطفه مع ترخانيوتس وتحامله على بازيلاكس ، اذ اظهر الاول فى صورة العالم الخبير بالاستراتيجية والتكتيكات الحربية ، فى حين كان الثانى من وجهة نظره لصق ومغمورا ، وكان من نتائج ذلك وقوعه اسيرا فى قبضة السلاجقة . هذا عن أهم أحداث الفصل الرابع عشر . واذا انتقلنا الى الفصل الخامس عشر(٨١) وعنوانه « ايفاد بريينيوس لنجدة بازيلاكس » ، فقد بداه مؤرخنا بالقول أنه عندما أخبر الامبراطور ان بلازكس خرج من المعسكر فى فوضى ودون ترتيب مسبوقه ، وانه انطلق كالسهم لقتال الاعداء ، استدعى على الفور نقفور بريينيوس ، دوق كل الغرب ، والذى كان آنذاك قائدا للجناح الايسر للجيوش البيزنطية ، واصدر اليه اوامره بالرحيل فورا بصحبة قوته لانقاذ بازيلاكس من الاخطار المحدقة به ، وان يستميت فى الدفاع عنه اذا كان متقهقرا(٨٢) . بالفعل ، لقد بدأت الشكوك تساور العاهل البيزنطى ، ويتقاده القلق ، اذ شعر بخطورة موقف قائده(٨٣) على حد قول مؤرخنا .

على اية حال ، فقد اسرع بريينيوس بتنفيذ أوامر الامبراطور ، فرحل بصحبته جيوشه . وفى خلال زحفه السريع لم ير فى أول الامر لا صديق ولا عدو . لكن بعد ان واصل زحفه بعيدا ، لاحظ كلما تقدم اكثر فاكثر ، تكاثف الاعداء متمركزة على التلال . واستمر فى سيره قليلا الى أن عثر على جثث للجنود البيزنطيين(٨٤) ، فتساءل عن مصير بازيلاكس . وانتهى به المطاف

أخيرا أن قابل احد الجنـــود الجـــرحى الذى لايزال يلفظ انفاسه الاخيرة ، فاستفسر منه عن ما حدث لبزيلاكس وجيشه. فسرد له الجندى الجريح المغلوبة بأكملها . اما الاتراك السلاجقة ، فقد خرجوا من كل فج ، محاولين الاحاطة بكتائب بريتيوس احاطة الدائرة بمعصم اليد . لكن القـــائد البيزنطى لاحظ حيلتهم الماكرة ، فنصح جنوده أن يتســموا بالشجاعة ، وان لا يقدموا على تصرف يتسم بالجبن وهذا لا يليق بمكانتهم ومقامهم كبيزنطيين . ثم اصـــدر أوامره الى جنوده بعمل نصف دائرة ، واعادهم فى نظام وهدوء الى المعسكر البيزنطى دون اكتراث لاى اخطار محدقة به وبوصوله على مقربة من المعسكر البيزنطى ، تراس جزءا من جيشه ، واصـــدر اوامره الى الآخرين بالتزام اماكنهم ، ثم باغت الاعداء واجبرهم بسهولة على الفرار . الا ان السلاجقة سرعان ما اعادوا تجميع صفوفهم وعاودوا قتاله بجمـــوعهم الغفيرة الا ان بريتيوس أعاد توحيد قسمى جيشه ، وانسحب للانضمام الى الجيش البيزنطى الاساس حينئذ ، انقض عليه السلاجقة انقضـــاض الاسد على فريســته ، فاصابوه بضربة رمح فى صدره ، وسهمين فى ظهره . وبعد قتال بطـــولى — على حد قول حفيده المتعاطف معـــه — تمكن من الانسحاب الى المعســـكر البيزنطى وبصحبته البقية الباقية من جيشه . ثم مثـــل القـــائد نقفور امام رومانوس ، وزوده بتقـــرير كامل عن كل هذه الاحداث . فتوســـل اليـــه الامبراطور بالتزام خيمته لتضميد جراحه(٨٥) ، فنفـــذ اوامر عاهله وظل تحت خيمته(٨٦) .

هكذا تفوح من هذا الفصل مبالغة مؤرخنا فى تجميد بطولة جده فى حربه ضد الاتراك السلاجقة . اما الفصل السادس عشر(٨٧) وعنوانه « انتظام صفوف الجيش البيزنطى لخوض غمار القتال »،فقد أورد فيه بريتيوس انه بمجرد بزوغ فجر اليوم التالى وظهور الشمس فى الافق(٨٨) ، ثم استدعاء جده للمرة الثانية للمثول امام الامبراطور . فتوجه اليه محتقرا جروحه . واتخذ